المحاضرة الثانية:

ادوارد سعيد وجهوده في النظرية مابعد الكولونيالية (الجزء الأول)

1- التعريف بادوارد سعيد:

جاء التعريف بشخصية ادوارد سعيد في موسوعة الجزيرة الرقمية المتاحة على الشابكة كما يلي: [**]

ولد إدوارد سعيد يوم 1 نوفمبر/تشرين الثاني 1935 في القدس، لعائلة مسيحية) من أب فلسطيني أميركي وأم فلسطينية لبنانية) وترعرع في القاهرة ثم هاجر منها إلى الولايات المتحدة وحصل على الجنسية الأميركية، حيث نال هناك درجة البكالوريوس من جامعة برنستون في الولايات المتحدة عام 1957 ثم حصل على الماجستير عام 1960 وعلى الدكتوراه من جامعة هارفارد عام 1964، وكان يتقن العربية والإنجليزية والفرنسية، وملما بالإسبانية والألمانية والإيطالية.

عمل إدوارد سعيد أستاذا للأدب المقارن بجامعة كولومبيا في نيويورك، إضافة إلى محاضراته في أكثر من مئة جامعة وعمله أستاذا زائرا في عدد من كبريات المؤسسات الأكاديمية في الولايات المتحدة، ومنها جامعة هارفرد عام 1974، وجامعة جونز هوبكينز عام 1979، وفي جامعة ييل في الفترة بين 1975-1976 أصبح زميلا لمركز الدراسات المتقدم للعلوم السلوكية التابع لجامعة ستانفورد، وحصل عام 1992 على منصب أستاذ جامعي، وهي أعلى درجة علمية أكاديمية في جامعة كولومبيا، كما نال عضوية في الأكاديمية الأميركية للفنون والعلوم ونادي القلم الدولي والجمعية الملكية للأدب والجمعية الأميركية للفلسفة، بالإضافة إلى عمله رئيسا لجمعية اللغة الحديثة، ومحررا في فصلية الدراسات العربية.

أغنى إدوارد سعيد الساحة الفكرية العربية والعالمية، ويبقى كتابه "الاستشراق" الذي ألفه عام 1978 من أهم الكتب التي أعطته بُعدا عالميا، فقد أثار ضجة واسعة وجدلا كبيرا في كثير من الأوساط العلمية والأكاديمية العالمية، وقد عمد فيه إلى تفكيك وخلخلة نظرة الغرب إلى الشرق، ودحض الصورة النمطية التي اعتمد فيها المستشرقون على دارسات ومفاهيم قامت على أسس غير علمية.

وكشف في الكتاب علاقة الدراسات الغربية حول الشرق بالسلطة والنزعات السياسية، والاستثمارات الكبيرة التي خصصت لها، وكيف أصبح الاستشراق مذهبا فكريا -له خلفية سياسية- أنتج صورة عن الآخر (الشرق) برغبة تسلطية تحكمية استعمارية.

وبين كيف أثر ذلك المذهب في تشكيل الوعي الغربي، وخلق انطباعا سيئا لدى المتلقي الغربي عن الشرق ونظرةً سلبية مليئة بالتعصب على العرب والإسلام، وبعكس ما اعتقده البعض، لم يتخذ إدوارد سعيد موقع الدفاع في كتابه، بل موقع المنتقد الكاشف لخطأ الغرب في مقاربته ورؤيته للشرق، وطرح مقاربة جديدة تسهم في ردم الهوة بين الشرق والغرب، من خلال احترام التعددية الثقافية وربط المعرفة بالنزعة الإنسانية بدل النزعة التسلطية الأيديولوجية، ولأجل ذلك كان يوجّه الطلبة العرب إلى دراسة تاريخ الأمم والحضارات الأخرى، ويحثهم على عدم الاقتصار على معرفة تاريخهم فقط.

كان سعيد عضوا في المجلس الوطني الفلسطيني لمدة 14 عاما ثم استقال بسبب معارضته الشديدة لبعض مواقف الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات، خاصة معارضته اتفاقيات أوسلو التي كان يعتقد أنها صفقة خاسرة للفلسطينيين، وقد عرف في العقود الثلاثة الأخيرة من حياته بمواقفه الجريئة وكتاباته عن الوضع في الشرق الأوسط التي يدافع فيها عن القضية الفلسطينية، وقيام دولة فلسطينية ذات سيادة.

ألف سعيد أكثر من عشرين كتابا، من بينها: "الاستشراق"، و"تغطية الإسلام: كيف تحدد وسائل الإعلام والخبراء الطريقة التي نرى فيها العالم"، و"مسألة فلسطين"، و"الثقافة والإمبريالية" الذي يعتبر تكملة لكتابه الاستشراق، كما ألف سيرة ذاتية أصدرها عام 2000 بعنوان "خارج المكان"، وقد ترجمت كتبه إلى أكثر من عشرين لغة.

وكتب دراسات ومقالات حول الصراع العربي الإسرائيلي وقضايا سياسية أخرى وقضايا ثقافية وأدبية نشرها في دورية "ذا نيشن"، وصحيفة "الغارديان"، ومجلة "لندن ريفيو أوف بوكس"، وصحيفة "لوموند ديبلوماتيك"، و"الأهرام"، وبالإضافة للكتابة امتلك إدوارد سعيد معرفة بالموسيقى وتاريخها، وألف فيها كتابين "متتاليات موسيقية"، و"عن النموذج الأخير: الموسيقى والأدب ضد التيار"، فضلا عن ممارسته للعزف على البيانو بمستوى المحترفين.

توفي إدوارد سعيد في أحد مستشفيات نيويورك يوم 25 سبتمبر/أيلول 2003 بعد أكثر من عشر سنوات من الصراع مع سرطان الدم.

2- نقد الاستشراق في فكر ادوارد سعيد:

تعتبر كتابات ادوارد سعيد بمثابة الركن الأساس في ما صار يعرف بخطابات مابعد الكولونيالية، وخاصة في مشروعه الذي اختص فيه الاستشراق بالتحليل والنقد عبر كتابيه "الاستشراق" و "الثقافة والامبريالية"، وهو المشروع الذي قدم فيه سعيد تفكيكا لخطابات الاستشراق وتعريتها لكشف النسق المحرك لها وهو نسق الهيمنة والسيطرة، من خلال قراءته لخطابات مجموعة من الأدباء والفلاسفة والرحالة والسياسيين الغربيين.

- **إدوارد سعيد ومساءلة مفهوم الاستشراق:**

في مقدمة كتاب الاستشراق، ناقش ادوارد سعيد المفاهيم التي تلحق عادة بالشرق و الاستشراق والمستشرقين، فالشرق كما يرى سعيد، **لا يقتصر على مجرد كونه إقليما مجاورا لأوربا، بل هو أعظم وأغنى مستعمرات أوربا وهو أيضا مدار لغاتها وحضاراته، وهو بهذا يساعد أوربا على وصف صورتها وشخصيتها وتجربتها المقابلة،** أي كأنه وجه نقيض للغرب، وصورة مقلوبة له ،وهذه الصورة ليست قائمة بذاتها، بل هي صنيع ابتدعه الغرب ليعبر عن نفسه من خلال نقيض له، وسنجد أن القول بالشرق كصناعة ذهنية غربية ، سيظل فكرة محورية عبر مجمل كتاب الاستشراق وإن بصيغ متنوعة.

يفرق ادوارد سعيد في كتابه بين محموعة من التعريفات التي قدمت للاستشراق، ويخلص إلى كون مفهوم الاستشراق لم يخرج عموما عن احدى هذه الدلالات الثلاث، دلالة أولى متعلقة بالمجال الجامعي الأكاديمي جعلت المستشرق **كل من يعمل في التدريس أو الكتابة أو اجراء بحوث في موضوعات متعلقة بالشرق،** ثم تطورت هذه الدلالة الى دلالة أخرى تقوم على اعتباره أسلوبا في التفكير، **يقوم على تمييز وجودي ومعرفي بين الشرق الغرب، وهكذا فقد تقبل جمهور كبير من الكتاب ، - وبينهم شعراء وروائيون وفلاسفة ومنظرون سياسيون واقتصاديون وإدريون – التمييز الأساسي بين الشرق والغرب بوصفه نقطة انطلاق لسلسلة محكمة الصياغة من النظريات والملاحم والروايات ....التي تتعلق بالشرق وسكانه وعاداته وعقله وقدره وغير ذلك.**

ثم هناك دلالة ثالثة للاستشراق يرى ادوارد سعيد أنها الاكثر جدارة بالتحليل والتفكيك والمناقشة هي التي عبر عنها بقوله: **الاستشراق يمكن أن يناقش ويحلل بوصفه المؤسسة المشتركة للتعامل مع مع الشرق باصدار تقريرات حوله، وإجازة الآراء فيه واقراره وبوصفه وتدريسه**

والاستقرار فيه وحكمه ، بايجاز: الاستشراق أسلوب غربي للسيطرة على الشرق واستبنائه وامتلاك السيادة عليه.

إن الاستشراق بهذا المفهوم الأخير خطاب يوضع للتفكيك، خطاب يرى ادوارد سعيد أنه تشكل كمنظومة طويلة الأمد لخدمة هدف واحد هو السيطرة والحكم والإخضاع، وذلك بالتوسل بالمعرفة كأداة للسيطرة والهيمنة وتحقيق السلطة عليه، وهنا يظهر أن منطلقات ادوارد سعيد الفكرية في تحليلاته كانت مستمدة كما يصرح هو بذلك من منجزات بعض المفكرين الذين ربطوا الحقيقة بالسلطة أو السلطة بالمعرفة، وعلى رأسهم ميشال فوكو .

- **الجغرافيا التخيلية ومركزية التمثيل / شرقنة الشرق**

يحيل مصطلح الجغرافيا التخيلية الذي استعمله ادوارد سعيد على مفهوم الشرق كتصورات وتمثيلات ثقافية لا تجاوز كونها لغوية خطابية، فالجغرافيا الحقيقة يختص بها الغرب بامتلاكه الوجود الفعلي والحقيقي ، بينما سيكون الشرق وجودا مرتبطا بالتمثيلات التي يمثله بها الغرب بحكم امتلاكه للقوة ، الشيء الذي جعل مجال الشرق جغرافيا مجموع الخطابات التمثيلية التي وضعها الغربي لها عبر أنماط ومستويات مختلفة.

فالغرب صاغ عبر خطابات الاستشراق صورة للشرق وللشرقي هي الصور التي تتموضع كأضداد لكل صور الغرب والغربي، وبذلك فكل مرفوض وممقوت من الغربي على نفسه ألحقه بالشرقي ، فيكون إذن مفهوم الشرق ليس ذلك الوجود الجغرافي المحدد في إقليم ما من الكرة الأرضية، وإنما هو مجموع الأضداد اللغوية للصورة التي يقدمها الغرب عن نفسه، وفي هذا الإطار أيضا يفهم مصطلح **شرقنة الشرق** الذي صاغه ادوارد سعيد أيضا، فالشرقنة هي إضفاء صورة ذهنية ناشة عن مجموعة من **التمثيلات الثقافية** التي صاغها الغرب والتي ستنوب عن **الحقيقة** الفعلية للشرق بما هو وجود جغرافي.

أفضى هذا السلوك إلى تشكل مجموعة لا حصر لها من التمثيلات التي تتموضع عبر ثنائية الـ"نحن" والـ "هم" أو الأنا والآخر، الأنا الغربي الذي يصف نفسه بأنه عقلاني / منهجي/ حكيم/ شجاع/ مهذب/ متحضر عالم/ متعلم/ وما إلى ذلك من الصفات الانسانية الايجابية، في حين ستتشكل ذات الآخر بمنطق التمثيل القائم على المخالفة والضدية على الصفات: لاعقلاني/ لامنهجي/ همجي/ جبان/ فظ / شهواني/بربري/ وغيرها من صفات النقص والدونية، التي تكشف في عرف الغربي عن أن الشرق لايملك القدرة على تمثيل نفسه، ولذا فانه سيمثل .

إن الاستشراق إذن أداة معرفية وظفها الغرب الذي لا يجد حرجا في استثناء نفسه ووصفها بالتعالي والمثالية من بين كتلة بشرية وجغرافية أكبر منه بكثير، ووجد لنفسه مبررا وهميا هو منطق الرسالة الحضارية التي يحملها للعالم ، مثل ما هو شائع عن الحملة النابليونية على مصر والتي يراها الغرب دوما – وحتى كثير من العرب- حملة حضارية بامتياز استطاعت حسبهم أن تمد شرايين التحضر الى العرب عبر بوابة مصر وتضخ في أوديتهم وخرابهم دماء الحضارة الانسانية التي يجب أن تكون إلا بنموذج غربي، لكن ادوارد سعيد يراها عملا كولونياليا بامتياز وخبثا استشراقيا بكل معانيه.

إن التوصيفات التاريخية التي دأبت على تسمية احتلال نابليون بسم الحملة بدلا عن الاحتلال هي توصيفات غربية بامتياز، استطاعت بحكم امتلاكها لشرعية القوة أن تكون هي المخولة بكتابة تاريخ مستعمراتها، وتوصيفه وفق ما يتماشى مع مخططها الشامل التي تؤطره ارادة الهيمنة والسيطرة التي خولت لها امتلاك مستعمرات لا تملك لنفسها الا الانصياع لاملاءاتها وذلك بصناعة الة تحكمية من داخل المستعمر نفسه تعكف على تكريس رؤيتها وتضمن دوام الاستعمارات حتى بعد استقلال الشعوب، فكتابة التاريخ بهذا مبحث من أهم المباحث التي سيهتم بها نقاد مابعد الكولونيالية بوصفها أحد الركائز التي تدخل ضمن منظومة التمثيل الاستشراقي.